

## جماليات الاستعارة في سورة الزمر

أ. سعاد عطاء الله

أستاذ مساعد بجامعة العربي التبسي – تبسة

### ملخص:

تمتاز الاستعارة القرآنية بخصائص ليست لها في غير القرآن الكريم هذه الخصائص جعلتها تكتسي حلة من الجمال في التعبير والحسن في التصوير، لهذا فهي- الاستعارة- لون من ألوان التصوير الفني في القرآن الكريم وأداة من أدواته المفضلة، و من خلالها يعبر عن المعنى الذهني والحالة النفسية والحادث المحسوس فهو يعتمد إلى هذه الصورة التي رسمها فيعطها ألوانها وظلالها، وقد وردت الاستعارة في سورة الزمر في مواضع كثيرة وكثيرها من الاستعارات القرآنية فإنها تحلت بخصائص فنية جعلتها ذات قيمة بلاغية كبرى خاصة وأنها قد حققت أهدافها وأغراضها في كل موضع.

### Résumé

la métaphore Coranique se Caractérise par des caractéristiques de ne pas avoir dans le non-conjoint, celui-ci a fait une belle expression d'art de Coran et l'outil d'outils préféré et qui exprime le sens de l'état mental et psychologique et l'incident perçu, il va à l'image peinte par couleurs Et a reçu la métaphore en Surat zumer dans de nombreux endroits, et comme tous les autres métaphores Coraniques elle se Caractérise par des caractéristiques artistiques qui lui a donné une grande valeur rhétorique surtout qu'elle a réalisé ses objectifs dans chaque endroit.

### توطئة:

إن القرآن الكريم كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه ونظمه، وفي علومه وحكمه، وفي تأثير هدايته، وكشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلية، فقد تحدّى سيدنا محمد ﷺ العرب بإعجازه وحكى لهم عن ربّه استحالة الإتيان بسورة من مثله، فظهر عجزهم على الرغم من حرص بلغاءهم على إبطال دعوته، فصدق الله العظيم إذ يقول: "قُلْ لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً" الإسراء 88.

و نلاحظ إعجاز القرآن الكريم في نظمه وتأليفه، وفي حروفه وكلماته و جملة وفقراته، فمن أعظم وجوه هذا الإعجاز، و أعمّها وأتمّها، الإعجاز البياني، الذي يتعلق بالبلاغة، إذ هو الوجه الأصيل الذي يلزم القرآن في كل سورة، وآياته، ونلمس ذلك جليّاً في الاستعارة القرآنية التي تحدّث عنها الكثير من علماء البلاغة ممّن كتبوا في الإعجاز القرآني.

ونظراً لأهمية موضوع الاستعارة القرآنية ارتأيت الأخذ فيه طارحة بعض التساؤلات.

- ما مفهوم الاستعارة ؟

- ماهي أنواعها ؟

- ما السرّ في جمال الاستعارة في سورة الزمر؟ و ماهي أغراضها البلاغية ؟.

- ما مدى تأثير المتلقي للاستعارة في القرآن الكريم عامة، وسورة الزمر خاصة ؟.

## المبحث الأول: مفهوم الاستعارة وأغراضها البلاغية

### 1- تعريف الاستعارة :

إن اندماج المجاز بالتشبيه ينتج لنا استعارة، فهي مجاز علاقته المشابهة، على هذا يكون تعريف الاستعارة كالآتي:

1- لغة: "استعار طلبُ العارية، واستعار الشيء، واستعاره منه، طلب منه أن يعيره أيّاه، يقال: تعوّر واستعار نحو تعجّب واستعجب"<sup>(1)</sup>.

وجاء في القاموس المحيط "أعاره الشيء، وأعاره منه، وعاوره إياه، وتعوّر واستعار: طلبها، واستعارة منه: طلب إعارته واعتوروا الشيء وتعوّروه، وتعاوروه: تداولوه..."<sup>(2)</sup>

إن ما يلاحظ من خلال الدلالة المعجمية للفظ "استعارة" تؤكد أنها نقل الشيء من حيازة شخص آخر، كذلك الأمر نفسه في المفهوم الاصطلاحي لهذه اللفظة، فنحن ندرك جيداً مدى التشابه، والعلاقة الوطيدة بين مفهوم المفردة في النظام المعجمي وبين مفهومها الاصطلاحي.

2- اصطلاحاً: يعدُّ الاستعارة صورة من الصور البيانية التي تزيّن الكلام وتحسّنه، فهي: "إدعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه مع طرح ذكر المشبه من البيتين كقولك لقيتُ أسداً، وأنت تعني به الرجل الشجاع"<sup>(3)</sup>.

ركز هذا التعريف على العلاقة التي تربط الاستعارة بالتشبيه، باعتبار أن الأولى تشبيه حذف أحد طرفيه المتمثل في المشبه والمشبه به، وهذا ما ذكره أبو يعقوب السكاكي في معجم المصطلحات العربية، حيث قال: "هي تشبيه حذف منه المشبه ولا بد أن تكون العلاقة بينهما المشابهة دائماً، كما لا بد من وجود قرينة لفظية أو حالية مانعة من إرادة المعنى الأصلي للمشبه به أو المشبه"<sup>(4)</sup>.

وفي نفس المضمار دأبنا يقول عبد القاهر الجرجاني: "أعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفاً تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم، فيكون هناك العارية"<sup>(5)</sup>.

إن ما يلاحظ من التعريفات المختلفة للاستعارة أنها مجاز تنزاح فيها الدلالة عن المعنى الأصلي للفظ إلى أحد المعاني الإضافية، رغم التشابه الكبير بين الاستعارة والتشبيه، إلا أن الأولى أبلغ من الثانية باعتبار أن "التشبيه مهما تناهى في المبالغة إلا أنه يذكر طرفيه والعلاقة التي تربطهما ليست إلا تشابه و تداني، عكس الاستعارة التي تصل إلى حد الاتحاد والامتزاج، و المشبّه و المشبّه به يصبحان معنى واحداً"<sup>(6)</sup>، وتعدّ هذه الفكرة عبارة عن استكمال ما بدأه عبد القاهر الجرجاني حين قال: "وهي أمد ميداناً وأشدّ افتناناً، وأكثر جرياناً و أعجب حسناً و إحساناً، وأوسع سعةً، و أبعد غوراً و أذهب نجداً في الصناعة"<sup>(7)</sup>، ولم يكتف عبد القاهر بهذا التعريف للاستعارة، إنما تفنن وقدّم الكثير من التعاريف المغايرة من ناحية اللفظ، ولكنها تصب في نفس المجرى فقال: "هي ضربٌ من التشبيه و نمط من التمثيل، وهي قياس التشبيه، و القياس يجرب فيما تعيه القلوب وتستفتي فيه الأفهام والأذهان لا الأسماع والآذان"<sup>(8)</sup>.

وبحكم العلاقة التي تربط دائماً الاستعارة بالتشبيه فهي تعرف على هذا النحو: "دربٌ من المجاز اللغوي و هي تشبيه حذف أحد طرفيه، أو هي انتقال كلمة من بيئة لغوية إلى بيئة لغوية أخرى و علاقتها المشابهة"<sup>(9)</sup>.

إذاً من خلال كل هذه التعريفات نخلص إلى أن الاستعارة هي تشبيه يُتر أحد طرفيه، وهي انتقال من المعنى الحقيقي إلى المجازي، إلا أنه لا بد من وجود علاقة المشابهة بين المعني الأول و الثاني.

#### الأنواع الاستعارة:

قسّم البلاغيون الاستعارة إلى أقسام كثيرة و متشعبة، باعتبارات متعددة، فقد قسّمت باعتبار الطرفين، وباعتبار الجامع بين الطرفين، وباعتبار أمر خارج عن ذلك كله، وليس في وسعنا أن نفصّل في كل هذه التقسيمات وما سأورده هو الأقسام المشهورة للاستعارة مع الإشارة لباقي التقسيمات:

#### 1- باعتبار المستعار منه:

قسّمت الاستعارة باعتبار المستعار منه إلى استعارة مكنية و تصريحية:

#### أ- الاستعارة المكنية:

"هي ما حذف منها المستعار منه أي المشبه به و بقيت في الكلام قرينة تدل عليه وذكر المستعار له" (10)، أي أن الاستعارة المكنية هي التي يكون فيها لفظ المشبه به مخفياً، استغناءً بذكر شيء من لوازمه فلم يذكر فيها شيء من أركان التشبيه سوى المشبه، و من أمثلة الاستعارة المكنية قول الشاعر:

لا تعجبي يا سَلْمُ من رجلٍ \*\*\* ضحك المشيب برأسه فبكي

حيث شبه المشيب بالإنسان، فحذف الإنسان (المشبه به) وأبقى على (المشبه) وهو المشيب، و رمز له بلفظ من خصائصه وهو (ضحك) على سبيل الاستعارة المكنية والقرينة هي إثبات ضحك الإنسان وبكاءه.

وقول أبو العتاهية يئى المهدي العباسي بالخلافة:

أتته الخلافة منقاداً \*\*\* إليه تجر أذيالها.

حيث شُبهت الخلافة بالفتاة الجميلة، وقد حذفت الفتاة (المشبه به) وأبقى شيء من لوازمها وهي (تجر أذيالها) كما بقي المشبه وهي الخلافة على سبيل الاستعارة المكنية (11).

#### ب- الاستعارة التصريحية:

هي ما صرح فيها بلفظ المشبه به أي ما حذف منها المستعار له، و ذكر المستعار منه، كقوله تعالى: "كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور" إبراهيم (01)، فقد استعار هنا لفظة (الظلمات) المستعار منه (للضلالة) المستعار له، فصرح بالمستعار منه (المشبه) وحذف المستعار له واستعار (النور) المستعار منه (للهداية) المستعار له، فذكر الأول وحذف الثاني (12).

يعني أن الاستعارة التصريحية هي التي يخفى فيها المشبه استغناءً بذكر شيء من لوازمه، ولم يذكر فيها شيء من أركان التشبيه سوى المشبه به، ومن أمثلة الاستعارة التصريحية:

- قال أحمد شوقي:

دقات قلب المرء قائمة له \*\*\* إن الحياة دقائق و ثوانٍ

حيث شبهت الدلالة بـ (القول) بجامع إيضاح المراد وإفهام الغرض في كل منهما، واستعير اللفظ الدال، و المشبه به للمشبه، فاشتق (القول) بعنى الدلالة (قائلة) بمعنى دال على طريق الاستعارة التصريحية و القرينة (القول) إلى (الدقات).  
- قال المتنبي يصف دخول رسول الروم على سيف الدولة:  
فأقبل يمشي في البساط فما \*\*\* درى إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقي  
حيث شُبه سيف الدولة بالبحر في العطاء و الكرم، و شبه بالبدر في الرفة والعلو، فاستعار الألفاظ الدالة على المشبه به و هي (البحر) و(البدر) للمشبه، والقرينة (أقبل يمشي) و هي قرينة لفظية<sup>(13)</sup>.

## 2. باعتبار اللفظ المستعار:

### أ- الاستعارة الأصلية:

إذا كان اللفظ المستعار اسماً جامداً لذات، كالبدن إذا استعير للجميل، أو اسماً جامداً لمعنى كالقتل إذا استعير للضرب الشديد، و يطلق اسم الاستعارة الأصلية في كل من التصريحية و المكنية<sup>(14)</sup>، سميت أصلية لعدم بناءها على تشبيه تابع لتشبيه آخر، كقول الشاعر:

شاكٍ إلى البحر اضطراب خواطري \*\*\* فيجيبني برياحه الهوجاء

فالبحر كالإنسان و حذف (الإنسان) المشبه به و أبقى شيء من لوازمه و هي (اضطراب الخواطر) على سبيل الاستعارة المكنية الأصلية لأن البحر اسم جامد.

### ب- الاستعارة التبعية:

وهي " ما كان اللفظ المستعار فيها فعلاً أو اسماً مشتقاً، فمثالها في الفعل باعتبار حدثه: نطقت الحال بكذا أي دلّت حيث شبهت الدلالة الواضحة بالنطق ثم اشتق من النطق بهذا المعنى (نطقت) بمعنى دلّت على سبيل الاستعارة التبعية " <sup>(15)</sup>.

و مثال الاستعارة التبعية قوله تعالى: "أَوْ مَنْ كَانَ مِيتاً فَأَحْيَيْنَاهُ" حيث شبه الضلال بالموت ثم استعير الموت للضلال و اشتق من الموت (ميتاً) بمعنى ضالاً،

وشبّهت الهداية بالإحياء ثم استعير الإحياء للهداية، واشتُق الإحياء من (أحيناه) بمعنى هديناه على سبيل الاستعارة التبعية.  
وقوله تعالى: "وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ"، فقد شُبه انتهاء الغضب بالسكوت بجامع الهدوء في الكل ثم استعير الغضب للسكوت، واشتُق من السكوت (سكت) بمعنى انتهى و زال.

### 3- الاستعارة التمثيلية:

"هي تركيبٌ استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع القرينة المانعة معناه الأصلي" (16) أي أن الاستعارة التمثيلية عبارة عن تركيب يستخدم في غير ما وضع له فمثلاً حينما نستخدم تركيب (الطيور على أشكالها تقع)، لم نقصد أن الطيور تتجمع مع الطيور المتجانسة لها في الصفات، بل قصدنا أمراً آخر، وهو اجتماع شخصين متوافقين في الصفات.

و زيادة على هذه التقسيمات هناك أنواع أخرى للاستعارة نذكر منها، الاستعارة المرشحة، و المطلقة، والمجرّدة، الاستعارة التخيلية و التحقيقية و الاستعارة العنادية و الوفاقية.

### III- الأغراض البلاغية للاستعارة:

إن بلاغة الاستعارة تزيد عن بلاغة التشبيه و تستفيد منها، فإن كان التشبيه يركز على تأليف الألفاظ، و ابتكار المشبه به بعيد عن الأذهان، فإن جوهر الاستعارة يعتمد على تناسي التشبيه و تحملك على تخيل صورة جديدة تنسيك روعتها ما يتضمنه الكلام من تشبيه خفي، و مثال ذلك قول البحري:

يسمو بكفٍ عن العافين حانيةً \*\*\* تهيم و طرف العين إلى العليا طمّاح

ففي البيت (الكف) قد تُمثل في صورة سحابة تصب على العافين السائلين، و أن هذه الصورة قد تُضفي على القارئ ذهول و دهشة، كما تسيطر على المشاعر لما اختبأ في هذا الكلام من تشبيه (17).

و لهذا قد كانت الاستعارة أبلغ من التشبيه البليغ لما تحمله من قوة تجسيد وتخيل الفكرة لدى السامع، كما يقول الجرجاني: "إنّ فضيلة الاستعارة الجامعة تتمثل في أنها تبرز البيان في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً، و توجب له بعد الفضل

فضلا ، و إنك تجد اللفظة الواحدة قد اكتست فيها فوائد حتى مكررة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد<sup>(18)</sup>.

ومن بلاغة الاستعارة أيضا أنها تعطي الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصَدَفَة الواحدة العديد من الدُرر، وتجي من الغصن الواحد أنواعا من الثمر. وكذا التشخيص والتجسيد في المعنويات، و بث الحركة والحياة والنطق في الجماد، فهي تجعل القارئ يرى الجماد حياً ناطقاً والأعجم فصيحاً والمعاني الخفية بادية جلية، و تجعل المعاني اللطيفة التي هي خبايا العقل كأَمْهَا جُسِّمَتْ حتى رَأَتْهَا العيون، فهي تُحْدِثُ أثراً جميلاً في النفوس، و يتجلى ذلك في قوله تعالى في تصوير العذاب الذي أعدّه للكافرين: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ، إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ" الملك 6-7-8 ، فالشهيقي في الآية الكريمة قد استعير للصوت الفظيع ، وهما لفظتان والشهيقي لفظة واحدة، فهو أوجز على ما فيه من زيادة البيان ، و (تميّز) استعير للفعل (تنشق من غير تباين) والاستعارة أبلغ التميز في الشيء هو أن يكون كل نوع منه مباينا لغيره و صائرا على حدته وهو أبلغ من الانشقاق ، لأن الانشقاق قد يحدث في الشيء من غير تباين ، واستعير الغيظ لشدة الغليان ، فكان أبلغ و أوجز في الدلالة على المعنى المراد ، لأن مقدار شدته على النفس مدرك محسوس ، ولأن الانتقام الصادر عن الغيظ يقع على قدر غيظه ففيه بيان عجيب ، وزجر شديد تقوم مقامه الحقيقة البتة<sup>(19)</sup> ، والاستعارة في هذا المثال ترسم صورة رجل يخلو قلبه من الرحمة والشفقة ، لكنه يحمل غيظا و كرها و حقدا يملأ قلبه ، وهنا الاستعارة قد حققت غرضين هما: الإيجاز و البيان في رسم نار جهنم ، و إبرازها في صورة تتخلع القلوب من هولها رعبا وفزعاً لأنها تحمل صورة الرجل الباطش الهائل الجبار عابس الوجه ذو صدر يغلي غيظا و حقدا ، و الاستعارة هنا هي التي لونت المعاني الحقيقية في الآية الكريمة كل هذا التلوين مما جعل بلاغتها تصل إلى حد الإعجاز ، و كذا المبالغة في إبراز المعنى الموهوم إلى درجة المشاهدة ، و مثال ذلك قوله تعالى: "وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَرْوُلُ مِنْهُ الْجِبَالُ" إبراهيم 46

فالجبال هنا استعارة طوى فيها ذكر المستعار له ، وهو أمر الرسول ﷺ ، ومعنى هذا أن الرسول ﷺ و ما جاء به من الآيات و المعجزات قد شُبَّهَ بالجبال ، و المعنى هنا بأنهم مكروا مكروهم لكي تزوا منه هذه الآيات و المعجزات التي هي في ثباتها واستقرارها كالجبال<sup>(20)</sup> .

### المبحث الثاني: الخصائص الفنية للاستعارة في سورة الزمر

تمتاز الاستعارة القرآنية بخصائص ليست لها في غير القرآن الكريم، هذه الخصائص جعلتها تكتسي حلة من الجمال في التعبير والحُسن في التصوير لهذا فهي- الاستعارة- "تعد لوناً من ألوان التصوير الفني في القرآن الكريم وهي من الأدوات المفضلة لديه، و من خلالها يعبر عن المعنى الذهني و الحالة النفسية والحادث المحسوس، فهو يعتمد إلى هذه الصورة التي رسمها فيعطى ألوانها وظلالها، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يضيف لها الحركة فإذا هي شاخصة تسعى"<sup>(21)</sup>، وقد وردت الاستعارة في سورة الزمر في مواضع كثيرة و غيرها من الاستعارات القرآنية فإنها امتازت بخصائص فنية جعلتها ذات قيمة بلاغية كبرى خاصة وأنها قد حققت أهدافها و أغراضها في كل موضع، ومن بين هذه الاستعارات الموجودة في سورة الزمر نذكر الآتي:

#### ١- بلاغة الاستعارة المكنية في سورة الزمر:

1- قال تعالى: "فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" الزمر 26.

ذكر الله سبحانه و تعالى في هذه الآية أن بعض الأمم السالفة التي كذبت على رسلها قد أتاها العذاب بغتةً من حيث لا تحتسب و لا يخطر لها بالبال فلحقها الذل والهوان والخزي في الحياة الدنيا فأصيبت تارة بالمسخ و أخرى بالخسف وثالثة بالقتل، و نحوها من ضروب النكال و الوبال، و إن عذاب الآخرة لأنكى وأشد أثراً لو كانوا يعلمون ويعتبرون<sup>(22)</sup> .

هذه حال المكذبين في الدنيا حيث أذاقهم الله الخزي و الذل، فحل العذاب بالأمم الغابرة من مكانٍ لا يشعرون به "فقومٌ أتاها العذاب من نبع الماء من الأرض مثل قوم نوح، و قوم عم عليهم البحر مثل قوم فرعون"<sup>(23)</sup> .

ولفظ (الدوق) في الآية الكريمة مستعار لإحساس ظاهر الجسد لأن إحساس الذوق باللسان أشد من إحساس ظاهر الجسد<sup>(24)</sup>، وأصل الذوق "ذاق الشيء يذوقه ذوقاً و ذواقاً و مذاقاً، فالذواق و المذاق يكونان مصدرين و يكونان طعماً، فهو طعمُ الشيء و يكون الذوق فيما يكره و يحمد"<sup>(25)</sup>

والإذاقة هنا استعارة لإهانة الخزي و جاءت هذه الاستعارة تخييلية، حيث شبهت الإذاقة المتخيلة وهي إذاقة الخزي بالإذاقة المتحققة وهي إذاقة الطعام وعلى هذا تكون الاستعارة مكنية، حيث شُبّه الخزي بالطعام الذي يذاق فحُذِف المشبّه به وهو الطعام، و ذُكر شيء من لوازمه وهي الإذاقة على سبيل الاستعارة المكنية وأُبقي على المشبه و هو الخزي فهي من باب استعارة لمحسوس لمعقول.

وبهذا تكون الاستعارة في هذا النص القرآني قد صورت حالة الأُلم السابقة عندما حل بهم العذاب في الدنيا، كالغرق و المسخ و الخسف و القتل و نحو ذلك من أنواع العذاب و فنون النكال، أبرع تصوير وأحسنه إذ أبرزته في صورة الذوق باللسان، و هو محسوس فكان أشد من أي ذوق و جعلت المعقول محسوساً مأنوساً لدى النفوس، إضافة إلى ذلك فإنها جعلت المعنى أكثر وضوحاً عند تجسيدها لهذا الأمر العقلي و هو إهانة في الخزي من خلال أمر مادي محسوس وهو الذوق و ما زادها وضوحاً للمعنى وحسناً للتصوير هو دقة اختيار اللفظ المستعار وهو (الدوق) هذا اللفظ الصادق الموحى الذي جعل السامع يحس بالمعنى أوفى إحساس لأنه صوّر منظر الكفار الظالمين، و قد أتاهم العذاب بغتة " من الجهة التي لا يحتسبون، ولا يخطر على بالهم إتيان العذاب والشر منها بينما هم آمنون رافهون إذ فوجئوا من مأثمهم"<sup>(26)</sup>، فالعين لا تدرك مدى هذا المنظر، والعقل لا يستوعب معناه إلا يجعله محسوساً ملموساً من خلال هذا اللفظ (الدوق) لأن حس الذائق لإدراك ما يذوقه قوي، وللذوق فضل على غيره من الحواس، ولو حاولنا تغيير هذا اللفظ أو تبديله لذهب جزء كبير من الحس و ما أدى المعنى المطلوب و لا الصورة المرجوة.

2- قال تعالى: "قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ" الزمر 38

ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أنَّ المشركين واقعين في تناقض كبير بين ما يقولون وما يفعلون ، فإذا سألتهم من خلق السماوات والأرض يقولون الله ، وفي نفس الوقت تجدهم منشغلين بعبادة الأصنام والأوثان ، فالتناقض واقع بين قولهم وفعلهم ، لذا فقد طرح عليهم سؤالاً إنكارياً يتضمن هذا التناقض فقال : إذا كان خالق العالم العلوي والسفلي هو الله عزَّ وجل كما أقررتم فأخبروني أنَّ آلهتكم إن أرادني الله سبحانه وتعالى بضر هل هن يكشفن عن ذلك الضر وأرادني بنفع هل هن يمسكنه فيمنعه سبحانه عني؟<sup>(27)</sup>.

وجملة (قل أفرايتم) أتت على "أسلوب حكاية المفاولة والمجاوبة لكلامهم الممكن بجملة (ليقولن الله)، ولذلك لم تعطف الثانية بالواو ولا بالفاء، والمعنى: ليقولن الله، فقل أفرايتم ما تدعون من دون الله" (28)، والاستفهام في الآية جاء إنكارياً والجواب على هذا الاستفهام محذوف لدلالة الكلام عليه

يعني: فسيقولون لا تكشف سوء ولا تمنع الرحمة، وعليه فيكون المعنى الإجمالي للآية أن المشركين حين يُسألون عن خالق السموات والأرض يقرون أن الله خالقها، فإذا كان هو الخالق فهل يملك أحدٌ أو شيء في هذه السموات والأرض أن يكشف ضرراً أراد الله أن يصيب عبداً من عباده؟ أم يملك أحدٌ أو شيء في هذه السموات والأرض أن يحبس رحمةً أراد الله أن تنال عبداً من عباده<sup>(29)</sup>.

و يقودنا هذا المعنى بالضرورة إلى استخراج استعارتين تضمنتهما الآية وهما: الأولى: قوله (كاشفاتُ ضُرِّهِ) "و حقيقة الكشف الإظهار والإزالة ورفع الشيء عما يواريه"<sup>(30)</sup> والكاشفات هي المزيلات، فالكشف هنا مستعار للإزالة<sup>(31)</sup>، حيث شبهت بهذا الشيء المستور وحذف المشبه به وهو إظهار الشيء المستور، وذكر شيء من لوازمه وهو الكشف، وأبقى على المشبه به وهو إزالة الضُرِّ بالكشف الحقيقي على سبيل الاستعارة المكنية، وهذه الاستعارة تعد من باب استعارة محسوس وهو الكشف المرئي لشيء معنوي وهو ذهاب الضُرِّ وإزالته.

الثانية: قوله (مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ) و الإمساك هو المنع و هو أيضا "استعارة مكنية بتشبيه الرحمة بما سيعفى به و تشبيه التعرض لحصولها بإمساك صاحب المتاع عن طالبه" <sup>(32)</sup> ، فحذف المشبه به و ذكر شيء من لوازمه و هو الإمساك ، و أُبقي على المشبه به و هو التعرض للرحمة على سبيل الاستعارة المكنية و هي أيضاً تخيلية، حيث شبه الإمساك المتخيل بالإمساك الحقيقي، و استعارة محسوس لمعقول حيث جعلته ملموساً مرئياً.

و بهذا تكون كلتا الاستعارتين - و ككل استعارة قرآنية- قد جسدت أمراً عقلياً و هو إزالة الضرر و منع الرحمة، و جعلته واضحاً جلياً من خلال أمر مادي محسوس، و هو كشف الغطاء على الشيء المستور المتواري و إمساك صاحب المتاع متاعه عن طالبه، و منعه عنهم زيادة في التأثير في النفس، و تبيناً أن الله سبحانه و تعالى بيده كل شيء فإذا قدرَ لشيء أن يكون فيقول له كن فيكون، و ما زاد المعنى وضوحاً و التصوير حسناً، هو الدقة في اختيار ألفاظ هاتين الاستعارتين، و جودة انتقائهما، فلفظة ( الكشف ) التي استعيرت لإزالة الضرر جاءت مناسبة للمعنى موحية له، فكثيراً ما نسمع عن إنسان غطته الهموم و المآسي فهذا الإنسان يكون كالشيء المغطى المستور، و إذا ما زالت عنه المشاكل صار كالشيء الواضح الجلي، و من هنا نلمس مدى التلاؤم الكبير بين المستعار له و المستعار منه و تلاؤم لفظ الكشف مع المعنى هو إزالة غطاء المصائب و الأضرار.

أما لفظة (الإمساك) التي استعيرت لمنع الرحمة جاءت أيضاً مناسبة و موحية للمعنى إذ يقال في معنى المنع فلانٌ أمسك عن الطعام أي امتنع، فالإمساك كثيراً ما يأتي للتعبير عن المنع، إذاً فلفظة الإمساك في الآية مناسبة للمعنى و استعارتها لمنع الرحمة جاءت ملائمة لها .

3 - قال تعالى: "اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" الزمر 62/63

ذكر الله سبحانه و تعالى في هذه الآية البراهين و الحجج على قدرته و عظمته ، و أن بيده كل شيء فهو الذي بيده مقاليد السموات و الأرض و المقاليد هي : المفاتيح ، فقل لا واحد لها من لفظتها ، قال الخطيب التبريزي : و قيل واحدها

مقلید ، و قيل مقلاد ، و يقال إقلید و أقالید <sup>(33)</sup> ، و قيل " واحدھا قلد علی غیر القیاس ، و قال أبو عمرو بن العلاء: و وجهه فی العربیة أن یشبع کسرة اللام " <sup>(34)</sup> ، و علی هذا فالمعنی مقلد، ثم یشبع مقلید فمن شاء أن یشبع کسرة اللام " <sup>(34)</sup> ، و علی هذا فالمعنی یشبع أن یشبع " أن لله وحده مفاتیح خزائن العالم العلوی و السفلی ، لا یشبع من التصرف فیھا غیره ، و عن عثمان ؓ أنه سأل النبی ﷺ عن المقلید فقال: (تفسیرھا لا إله إلا الله و الله أكبر و سبحان الله و بحمده و استغفر الله ، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلی العظیم هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن یحی و یمیت و هو علی کل شیء قدير) ، و المعنی أن لله هذه الكلمات یوحد بها و یمجدها و هی مفاتیح خیر السموات و الأرض <sup>(35)</sup> ، و من تکلم بها من المؤمنین أصابه ، فوجه إطلاق المقلید علیھا أنها موصلة إلى الخیر كما توصل المفاتیح إلى ما فی الخزائن <sup>(36)</sup> ، و یشبع أن یشبع معنی (مقلید السموات و الأرض) مفاتیح خیراتها و معادن بركانها من إدرار الأمطار و إیراق الأشجار ، و سائر المنافع و عوائد المصالح و قد وصف الله تعالی السماء فی عدة مواضع بأن لها خزائن و أبواب ، فحسُن علی مقتضى الكلام أن توصف بأن لها مقلید و أغلاق.

قال تعالی: "لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ" الأعراف <sup>40</sup> ، و قال: "وَفَتَحْنَا بَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمَرٍ" القمر 11 ، و قال: "وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ" المنافقون 07 ، و قالوا خزائن السموات و الأرض هی الأمطار و خزائن الأرض هو النبات ، أو قد یشبع أن یشبع المعنی: له طاعة السموات و الأرض و من فیهن كما یقال: ألقى فلان إلى فلان مقلیده أي: أطاعه ، و فوض أمره إلیه. <sup>(37)</sup> ، و علی ذلك قول الأعشى:

فتی لو ینادی الشمس ألق قناعها \*\*\* أو القمر الساری لاقی المقلیداً <sup>(38)</sup>

و مهما تعددت معانی الآیة و تشعبت ، فالمهم أن إسناد لفظة (المقلید) للسموات و الأرض استعارة مکنیة ، حیث یشبه الله سبحانه السموات و الأرض بخزائن ، لأن ما تحتویه السماء و الأرض من ذخائر تنفع الناس جمیعاً ، و هو فی حاجة ماسة لها ، فشبهت هذه الذخائر بالشیء المخزون فی الخزائن ، و هی السموات و الأرض فحذف المشبه به (الخزائن) و ذکر شیء من لوازمه و هو (المفاتیح أو المقلید) و أبقی علی المشبه و هو السموات و الأرض علی سبیل الاستعارة المکنیة من باب استعارة

محسوس وهو المفاتيح لمحسوس وهو السماوات والأرض، وقد جسدت لنا هذه الاستعارة صورة الذخائر الموجودة في السموات والأرض، وما مدى أهميتها بالنسبة للإنسان كأنها مواد مخزونة في خزائن مغلقة بمفاتيح لأهميتها الشديدة، كما بينت الاستعارة أن الله مالك كل شيء، لأن الله له مفاتيح خزائن السماوات والأرض له الملك لتلك المخزونات، وهذا ما جعل بعض العلماء يقر بأن إسناد المقاليد للسموات والأرض "مجاز مرسل بعلاقة اللزوم"<sup>(39)</sup>، لأن كون الله مالكا لمقاليد السموات والأرض فهذا يستلزم ملكيته للسموات والأرض.

#### البلاغة الاستعارة التصريحية في سورة الزمر:

##### 1 - قال تعالى: "أَقَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ" الزمر 22

بعد أن بالغ الله في ذكر ما يدل على وجوب الإقبال على طاعته والإعراض عن الدنيا، أتبع ذلك أنه لا ينتفع بهذا إلا من شرح الله صدره للإسلام، ونور قلبه وأشعر نفسه حب العمل به<sup>(40)</sup>.

وأصل الشرح: البسط والمد للحم ونحوه، يقال شرحت اللحم وشرحته، ومنه سمي علم مشاهدة باطن الإنسان وتركيبه علم التشريح، لتوقفه على شق الجلد واللحم والأضلاع على ما تحت ذلك<sup>(41)</sup>، ومن هنا يكون شرح الصدر "استعارة لقبول العقل هدي الإسلام ومحبه"<sup>(42)</sup>، حيث شبه قبول العقل والقلب للإسلام والهدي بتشريحيهما حقيقة فحذف المشبه وصرح بالمشبه به وهو شرح الصدر على سبيل الاستعارة التصريحية، وهي من باب استعارة محسوس لمعقول، فشرح الصدر إذن "عبارة عن تكميل الاستعداد للإسلام فإن الصدر محل الصدر الذي هو منبع للروح التي تتعلق بها النفس القابلة للإسلام فانشراحه مستدع لاتساع القلب واستضاءته بنوره"<sup>(43)</sup> وقد صورت الاستعارة هنا حقيقة القلوب التي تتقبل الإسلام، وحالها مع الله تعالى أحسن تصوير وما زادها حسنا هو لفظ (شرح) "فمن رشاقة ألفاظ القرآن الكريم إثارة كلمة الشرح للدلالة على قبول الإسلام لأن تعاليم الإسلام وأخلاقه وآدابه تكسب المسلم فرحا بحاله، مسرة

برضى ربه و استخفاف المصائب لأنها على حق في أمره، لأنه مُثاب على ضره ، وأنه راجح رحمة ربه في الدنيا والآخرة<sup>(44)</sup>.

وهناك من جعل استعارة شرح الصدر استعارة تمثيلية، حيث مثلت حالة قبول القلب و العقل للإسلام بحال من يشرح صدره حقيقة ، و من عظمة هذه الآية أنها تضمنت أكثر من استعارة ، إضافة إلى استعارة شرح الصدر لقبول هدي الإسلام استعير النور للهدي ووضوح الحق "واللطف والتوفيق والاهتداء"(45) فشبهها بالنور في الإضاءة فحذف المشبه وأبقى على المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية ، وهي من باب استعارة محسوس لمعقول، حيث استعير النور المحسوس المرئي للهدي المعقول المعنوي

" فوضح المعنى و جعل الصورة مأنوسة لدى النفس البشرية و لم يقف عند هذا الحد من إيضاح وحسن التصوير، بل تعدى إلى لطيفة أخرى من الجمال، فراعى جانب الصورة اللفظية فاختر للمعنى الذي وضعه لفظا مناسباً موحياً، وهو لفظ النور"<sup>(46)</sup> ، واستعمال النور مكان الهدي لأنه أبين<sup>(47)</sup> ، ولأن مهمة النور هي تبديد الظلام الحسي فيبعث الأمن و الطمأنينة في النفوس الإنسانية ، في حين أن الهدي يعمل على تبديد الظلمات المعنوية التي تسبح فيها النفوس البشرية و يدعوها إلى الاستقرار و الأمان.

2 - قال تعالى: "وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" الزمر 69.

يوضح الله سبحانه و تعالى في هذه الآية أنه بعد أن يأخذ كل ذي حق حقه من النعيم أو العذاب تأخذ أرض المحشر في الإشراق بنور العدل الذي أقيم فيها فقال: "و أشرقّت الأرض بنور ربّها ، ومعنى أشرقّت الأرض صارت عرصات يوم القيامة مشرقة و مضيئة، والمراد بالأرض هنا: المحشر وهي الأرض المبدلة من الأرض المعروفة، و الصحيح يحشر الناس على الأرض بيضاء عفراء، وهي أوسع بكثير من الأرض المعروفة و في بعض الروايات أنها يومئذٍ من فضة"<sup>(48)</sup> ، فهذه الأرض تشرق وتضيء بماذا يا ترى؟ الإشراق والإضاءة هنا من نوع آخر غير المؤلف عندنا إنه نور

الله تعالى و ما أعظمه من نور قيل إنّه نور يخلقهم الله بلا واسطة أجسام مضيئة كالشمس والقمر<sup>(49)</sup>.

و تتضمن الآية استعارة بديعة " فقد استعار الله النور للحق والبرهان والعدل الذي يسود يومئذ في أرض المحشر، فشبّه الحق و العدل بالنور، و حذف المشبه وصرّح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية وقد صورت لنا هذه الاستعارة أرض المحشر وهي تشع نورًا لعدل ربها، و حقه أبدع تصوير، كما صوّرت "صورة الحكمة الكاملة التي شرقت بنور العدل و صدر الحكم على ما يستحقه المحكوم فيه من كرامة أو نذالة لذلك قال الله تعالى "وقضى بينهم بالحق" أي : صدر القضاء فيهم كما يستحقون و هو مسمى الحق.<sup>(50)</sup> و إضافة النور للربّ إضافة تعظيم لأنه منبعث من جانب التقديس وهو الذي في قوله تعالى: "الله نور السموات والأرض" النور 35 ، إضافة النور للرب إضافة تشريف للمضاف إليه<sup>(51)</sup>.

و من هنا نستخلص أن الاستعارة في الآية الكريمة قد أدت مهمتها على أتم وجه ، فمن خلالها تبين لنا عظمة الله سبحانه و تعالى التي يتنافى معها الشرك، كما بينت عدله في قضاءه بين عباده في عرصات يوم القيامة.

3- قال تعالى: "وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ " الزمر 47.

رأينا في الآية السابقة أن الله سبحانه و تعالى قد أقام عدله في قضاءه بين عباده ، فأشرقت الأرض بنور هذا العدل، و أخذ الكافر جزاءه و من العذاب الأليم ، والمؤمن التقى جزاءه من النعيم و جنّة الخلد وهامهم الآن يشكرون الله و يحمّدونه على هذا الجزاء، فبيّنت الآية هنا أحوال السعداء و ما يلاحقونه من النعيم يومئذ غير ناسين حمده و شكره على هذه النعم فقالوا: " الحمد لله على تصديق وعده بالبعث و الثواب "<sup>(52)</sup>، و الحمد لله على أنه أورثنا الأرض " يريدون المكان الذي استقروا فيه، فإن كانت أرض الآخرة التي يمشي عليها تسمى أرضا حقيقية، وإلا فإطلاقهم الأرض على ذلك من باب الاستعارة تشبيها بأرض الدنيا<sup>(53)</sup>، حيث شبه سبحانه و تعالى أرض الآخرة بأرض الدنيا ، فحذف المشبه وهو الآخرة و صرح بالمشبه به وهو الأرض الدنيا على سبيل الاستعارة التصريحية .

و معنى إيراث الأرض: "ملكوها وجعلوا ملوكها"<sup>(54)</sup>، وقد أطلق لفظ الإيراث لما في هذا اللفظ من السهولة في الملك، يقال: "أورث الرجل ولده مالا إيراثا حسنا، وورث إذا مات مورثك فصار ميراثه لك"<sup>(55)</sup>، وعلى هذا يكون إسناد لفظ الإيراث على أرض الجنة على سبيل الاستعارة، وقد شهت حرية تصرف المؤمنين في أرض الجنة كحركة تصرف الوارث فيما يرث، يقول الزمخشري: "وأطلق تصرفهم فيها كما يشاءون تشبيها بحال الوارث و تصرفه فيما يرثه، واتساعه فيه و ذهابه إلى إنفاقه طولاً و عرضاً"<sup>(56)</sup>، وعليه تكون الاستعارة هنا تصريحية، حيث صرح بلفظ المشبه به و هو الوارث من قبيل تشبيه محسوس و هو التصرف المطلق في الجنة بحرية، بمحسوس و هو حرية تصرف الوارث في ميراثه كما يشاء، و قد عملت الاستعارة على توضيح المعنى فصار ملموساً مأنوساً، ومما زاد هذا الوضوح في المعنى والحسن في التصوير لفظ أورث، هذا الذي يوحي بملكية الشيء بسهولة، فكذلك إيراثه أرض الجنة فهو أمر سهل و ما على المؤمن سوى طاعة ربه و التزامه بما يقول رسوله الكريم ﷺ، فيجد نفسه وارث هذه الأرض، كما يوحي بالحرية التي يتمتع بها صاحب الميراث في إرثه، كذلك المؤمن فله الحرية المطلقة في تصرف هذه الأرض، وهذا بدليل قوله (نَبَّأُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ) أي التنقل في أي مكان من أرض الجنة، "وفضل هذه الاستعارة و ما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل في نفس السامع مالا تفعل الحقيقة"<sup>(57)</sup>.

### III - بلاغة الاستعارة التمثيلية في سورة الزمر:

1- قال تعالى: "قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"

#### الزمر 15

تعرضت الآية لبيان الخسارة الكبرى التي يحظى بها الكفار يوم القيامة حيث بينت أن (الخاسرين) هم "الكاملين في الخسران و هو إضاعة ما لهم و إتلاف ما لا بد منه لجمعهم أعظم أنواع الخسران"<sup>(58)</sup>، و افتتح الكلام بحرف التوكيد تنبيها على أنه واقع و تعريف (الخاسرين) تعريف الجنس، أي أن الجنس الذين عرفوا بالخسران هم الذين خسروا أنفسهم و أهلهم"<sup>(59)</sup>، وقيل المراد بالأهل هم التباع مطلقاً، و قيل الأهل، هذا عن خسارة الأهل أما عن خسارة الأنفس فهي:

عبارة عن إفساد فطرتها ، وعدم اهتدائها بما منحها الله تعالى من الهدايات<sup>(60)</sup> ، يقول محمد الطاهر بن عاشور في هذا الصدد: "و معنى(خسروا أنفسهم) فقدوا فوائدها فإن كل واحد يرجو من واهبه أن يجلب له النفع و تدفع عنه الضر ، بالرأي السديد و ابتكار العمل المفيد، و نفوس المشركين سولت لهم أمالا كانت سبب خفة موازين أعمالهم، فكانت كرأس مال التاجر الذي رجا منه زيادة الرزق فأضاعه كله"<sup>(61)</sup> ، و على هذا الأساس فالآية تتضمن استعارة تمثيلية، حيث مثلت حال إيقاع الكفار أنفسهم في العذاب بحال التاجر الذي أفلس و ضاع ماله بدلاً من النماء و الربح، فحُذفت الهيئة الدالة على المشبه به على سبيل الاستعارة التمثيلية المكنية و هي من باب استعارة محسوس لمعقول، حيث استعير لحالة الكفار يوم القيامة و خسارتهم الكبرى لأنفسهم و هو أمر معنوي بحالة خسارة التاجر لرأس ماله، و هو شيء محسوس، فجسّدت الاستعارة هذا الأمر العقلي وجعلته واضحاً جلياً من خلال أمر مادي محسوس و هذا زيادة في التأثير و تبييناً للمعنى ، وقد جاءت المناسبة بين المستعار له و المستعار منه واضحة لأنه لا بد من معنى مشترك بين طرفي الاستعارة حيث إن التاجر في هذه الدنيا لا شيء في الدنيا يحرص عليه و يصونه أكثر من ماله و تجارته، إذ هي سبب عيشه في رفاهية ونعيم، في حين أن رأس مال كل إنسان في الحياة الآخرة هو العمل ، وخسارة كل من التاجر في الدنيا لرأس ماله و الإنسان في الآخرة لعمله إن كان غير صالح تعني الإفلاس و الضياع لكل مجهود مبذول.

وجاءت لفظة (خسران) ملائمة للمعنى حيث إن الخسران "يستعمل في المال والجاه و الصحة و السلام و العقل و الإيمان و الثواب"<sup>(62)</sup> ، و هذا مما زاد المعنى وضوحاً و تأثيراً ، حيث أثارت لفظة الخسران في النفس معاني الخيبة و الإفلاس، و أي كلمة لها وقعها و تأثيرها في نفوس الكفار الضالين أكثر من هذه الكلمة خاصة و أنها أصابت النفوس و الأعمال و لم تصب المال كما اعتدناها ، فالكفار يومئذ يتمنون لو خسروا المال و التجارة على أن يخسروا أنفسهم لأن الإنسان إن خسر نفسه يوم القيامة فلا ينفعه ربح العالم كله في هذه الدنيا.

2- قال تعالى: "وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ"  
الزمر 47

بيّن الله تعالى في هذه الآية أحوال الكفار يوم القيامة عند رؤيتهم للعذاب الذي ينتظرهم والأهوال والشدائد فلو وجدوا فدية منه لافتدوا بها ، و المراد ب(ما في الأرض) " كل عزيز عليهم من أهاليهم وأموالهم، بل وأنفسهم، فهو أهون من سوء العذاب يوم القيامة"<sup>(63)</sup> والفدية من " افتدى إذا بذل المال على نفسه ، فإن الفداء حفظ الإنسان من النائية بما يبذله عنه ، أي: يجعل أكل الأموال والذخائر فدية لأنفسهم من العذاب الشديد ، لكن لا مال يوم القيامة و لو كان لا يقبل الافتداء به ، و هذا وعيد شديد لهم من الخلاص"<sup>(64)</sup> ، وفي الكلام استعارة تمثيلية، حيث مثل الله تعالى حال الكفار عند رؤيتهم لهول وشدة العذاب بحال من يحاول التخلص والفداء مما هو فيه فلا يُتقبل منهم، فالكلام يمثل "لحالهم -المشركين - في شدة الدرك و الشقاء بحال من لو كان له ما ذكر ببذله فدية من ذلك العذاب فشبّه الله حال الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم ، و باستهزائهم بالرسول صلى الله عليه وسلم، حين يرون العذاب وأهواله، بحال من يحاول الافتداء بكل ما يملك وأغلى ما يكسب، و التخلص من هذا العذاب الشديد فحذف الهيئة الدالة على المشبه، و صرح بالهيئة الدالة على المشبه به، و هي الافتداء بكل الأموال للتخلص من العذاب على سبيل الاستعارة التمثيلية التصريحية." و يستمر القرآن في رسم الصورة المحسوسة مما يزيد قوة تمكن لما في النفس"<sup>(65)</sup> ، فهذه الاستعارة من باب استعارة محسوس و هو الفدية للمعقول و هو حال الكفار يوم القيامة عند رؤيتهم للعذاب و قد صوّرت هول العذاب يوم القيامة و مدى تأثير هذا التصوير في النفس و العاطفة، خاصة عند تشخيصها لخيبة أمل الكفار في نجاتهم من العذاب، و ما زاد التصوير و التشخيص حسناً و جمالاً، تلك الألفاظ الموحية المتناسقة مع بعضها و مع معانيها، و نلمس ذلك في لفظ (فدية) حيث اختير هذا اللفظ ذاته لما فيه من معاني حفظ النفس من النوائب بالأموال و الأملاك الطائلة،

و هذا إشارة إلى أن كل ما كان يملكه الكفار في الحياة الدنيا من مال و جاه، وقصور فخمة، لا ينفعهم في آخرتهم، و ما ينفع إلا العمل الصالح.

3- قال تعالى: "وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" الزمر 67

روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه، و عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن حبراً من اليهود أتى الرسول صلى الله عليه و سلم: "فقال يا محمد أشعرت أن الله يضع يوم القيامة السماء على أصبع، و الأرض على أصبع، و الجبال على أصبع و الماء، و الثرى والشجر على أصبع، و جميع الخلائق على أصبع ثم يهزهنّ و يقولك أنا الملك، أين الملوك؟، فضحك الرسول صلى الله عليه و سلم تعجباً منه و تصديقاً له فأنزل الله هذه الآية" (66).

وقد وضع الله سبحانه و تعالى هذه الآية عظمة ملكه في اليوم الآخر، "فالقدر بمعنى التعظيم أي: ما عظموا الله حق تعظيمه، حيث جعلوا له شريكاً لا يليق بشأنه العظيم و يقال: قدر الشيء قدره من التقدير و المعنى: ما قدروا عظمته تعالى في أنفسهم" (67).

و المراد بالقبضة: "المرّة من القبض أطلقت بمعنى القبضة و هي المقدار المقبوض بالكف، و يستعار القبض لتحصيل الشيء وإن لم يكن فيه مراعاة الكف" (68).

و من هنا يتبين أن الآية الكريمة تتضمن استعارتين تمثيليتين:

فأما الأولى: فقد شبه الله حال قدره و عظمته، بحال من يكون له قبضته فيها الأرضون جميعاً حيث "شبه الأرض و هي تحت تصرف المولى سبحانه و تعالى و رهن إرادته بالشيء الذي يكون في قبضته الممسك به فهو متمكن منه يصرفه كيف يشاء" (69)، فحذف هيئة المشبه و هو الشيء المقبوض على سبيل الاستعارة التمثيلية التصريحية من باب استعارة محسوس لمعقول.

و أما الثانية: فقد شبه حال عظمته و قدرته تعالى بحال من يطوي ثوباً أو ورقة " في يمين منقاد له فهو يطويه و ينشره كلما شاء، و خصّ اليمين لأنها أشرف اليدين و أقواهما" (70)، وقد حذف هذه الاستعارة المركب الدال على حال المشبه الذي

يتمثل في عظمة الرب و صرح بالمركب الدال على المشبه به و هو (الطي) على سبيل الاستعارة التمثيلية التصريحية من باب استعارة محسوس لمعقول. وجاءت كل من الاستعارتين في الآية تخيلية، حيث شُهِت قبضة الأرض و طي السماوات التخيليتان بالقبضة و الطي الحقيقتين، لكل من الاستعارتين أثرهما في تبليغ المعنى المراد و وقعها في النفوس و كما نعلم أن الاستعارة تعدّ من أفضل أدوات التصوير الفني في القرآن الكريم حيث تعبّر عن " المعنى الذهني و الحالة النفسية و الحادث المحسوس، فهو يعتمد إلى هذه الصورة التي رسمها فيعطيا ألونها و ظلالها"<sup>(71)</sup>.

وكذلك الحال بالنسبة إلى الاستعارتين الموجودتين في الآية، فالله سبحانه و تعالى نبّه عن طريقهما إلى " غاية عظيمة و كمال قدرته و حقارة الأفعال العظام بالنسبة إلى قدرته، و برهن على أن تخريب العالم أهون شيء عليه"<sup>(72)</sup>.

والغرض من هذا التمثيل هو "المبالغة في وصفه بالقدرة على قلب القلوب وتصريفها بغير مشقة و لا كلفة"<sup>(73)</sup>، فالاستعارتان في الآية الكريمة تُعدّان من أكبر الدلائل على وحدانية الله سبحانه و تعالى التي يتنافى معها الشرك به.

و في الأخير نستخلص أن الاستعارة في القرآن الكريم تستمد مادتها الأولية من الطبيعة، هذه الأخيرة التي لا تتغير و لا تتبدل بمرور الزمن فتقرب بها الأفهام، وبالتالي فالقرآن الكريم مستمر استمرار هذه الطبيعة، كما أن الاستعارة في القرآن لم تأت عبثاً و لا عرضاً، بل جاءت لتبليغ معاني و أبعاد و أهداف سامية، و كل تصوير في القرآن يؤدي الهدف و الغرض الذي وضع لأجله، و من هنا تظهر مهمة التصوير البياني في القرآن التي تتمثل في تبليغ المعنى و توصيل الفكرة بأقصر الطرق.

### الهوامش:

- (1)- ابن منظور: لسان العرب، مادة (ع.و.ر)، ط.01، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997 م، مج. 4، ص.464.
- (2)- الفيروز أبادي: قاموس المحيط، مادة (ع.و.ر)، ط. 08، مؤسسة الرسالة، 1426 هـ - 2005 م، ص.446.
- (3)- الشريف الجرجاني: التعريفات، مكتبة لبنان، 2000 م، ص.20.
- (4)- مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية، ط.2، مكتبة لبنان، بيروت 1984 م، ص.27.
- (5)- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ط.1، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان ص.22.
- (6)- أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني و البيان و البديع، ت:حسن النجار، ط.2، مكتبة الآداب، 1426 هـ- 2007 م، ص.304.
- (7)- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص.32.
- (8)- المرجع نفسه، ص.20.
- (9)- يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية، ط.1، دار المسيرة للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 1427 هـ- 2007 م، ص.186.
- (10)- محمد أحمد قاسم، محي الدين ذيب: علوم البلاغة، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، 2008، ص.192.
- (11)- عبد العزيز قليقطة: البلاغة الاصطلاحية، ط.4، دار الفكر العربي، القاهرة، ص.60.
- (12)- حميد آدم ثويني: البلاغة العربية المفهوم و التطبيق، ط.1، دار المناهج للنشر و التوزيع، 1427 هـ- 2007 م، ص.205.

- (13)- المرجع نفسه، ص.206.
- (14)- أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ص.277.
- (15)- أحمد أبو المجد: الواضح في البلاغة، ط.1، دار جرير للنشر والتوزيع، ص.71.
- (16)- محمد أحمد قاسم، محي الدين ذيب: علوم البلاغة، ص.212.
- (17)- مصطفى أمين: البلاغة الواضحة، ص.184.
- (18)- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص.32.
- (19)- بكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد، ط.1، دار العلم للملايين، 1982م، ج.2، ص.131-132.
- (20)- المرجع نفسه، ص.132.
- (21)- بكري شيخ أمين: التعبير الفني للقرآن الكريم، ط.1، دار العلم للملايين، 1994م، ص.202.
- (22)- أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي، ط.1، مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1365هـ-1946م، ج.23، ص.162.
- (23)- محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ج.23، ص.395-396.
- (24)- المصدر نفسه، ج.23، ص.394.
- (25)- ابن منظور: لسان العرب، مادة (ذ.وق)، ج.6، ص.907.
- (26)- إسماعيل حقي البروسوي: روح البيان، دار الفكر، ج.8، ص.121.
- (27)- أبو الفضل شهاب الدين الألوسي: روح المعاني، ط.4، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1405هـ-1985م، ج.24، ص.6.
- (28)- محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج.24، ص.16.

- (29)- سيد قطب: في ظلال القرآن، ط.2، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ج.24، ص.34.
- (30)- إسماعيل حقي البروسوي: روح البيان، ج.8، ص.111.
- (31)- محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير و التنوير، ج.24، ص.17.
- (32)- المصدر نفسه، ج.24، ص.17.
- (33)- أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، ج.7، ص.426.
- (34)- الشريف الرضي: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ت: علي حمود مقلد، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1986م ص.263.
- (35)- إسماعيل حقي البروسوي: روح البيان، ج.8، ص.122.
- (36)- أبو الفضل شهاب الدين الألوسي: روح المعاني، ج.24، ص.22.
- (37)- الشريف الرضي: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص.264.
- (38)- ديوان الأعشى، دار بيروت للطباعة و النشر، 1400هـ-1980م، ص.115.
- (39)- أبو الفضل شهاب الدين الألوسي: روح المعاني، ج.24، ص.21.
- (40)- أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي، ج.23، ص.159.
- (41)- محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير و التنوير، ج.23، ص.379.
- (42)- المصدر نفسه، ج.24، ص.379.
- (43)- إسماعيل حقي البروسوي: روح البيان، ج.8، ص.94.
- (44)- محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير و التنوير، ج.23، ص.380.
- (45)- أبو الفضل شهاب الدين الألوسي: روح المعاني، ج.24، ص.257.
- (46)- محمود السيد شيخون: استعارة، ص.93.
- (47)- أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص.271.
- (48)- أبو الفضل شهاب الدين الألوسي: روح المعاني، ج.24، ص.29.

- (49)- المصدر نفسه، ج.24، ص.30.
- (50)- محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير و التنوير، ج.24، ص.67.
- (51)- المصدر نفسه، ج.24، ص.30.
- (52)- أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي: روح المعاني، ج.24، ص.35.
- (53)- المصدر نفسه، ج.24، ص.35.
- (54)- جار الله الزمخشري: الكشاف، ط.3، دار الكتاب العربي، 1407هـ-1987م، ج.4، ص.147.
- (55)- ابن منظور: لسان العرب، مادة (ور.ث)، ج.6، ص.607.
- (56)- جار الله الزمخشري: الكشاف، ج.4، ص.147.
- (57)- أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص.269.
- (58)- أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي: روح المعاني، ج.23، ص.251.
- (59)- محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير و التنوير، ج.23، ص.360.
- (60)- محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ط.2، دار المعرفة ، بيروت، لبنان، ج.7، ص.228.
- (61)- محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير و التنوير، ج.8، ص.150.
- (62)- إسماعيل حقي البروسوي: روح البيان، ج.8، ص.87.
- (63)- أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي: روح المعاني، ج.24، ص.11.
- (64)- إسماعيل حقي البروسوي: روح البيان، ج.8، ص.120.
- (65)- أحمد أجمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص.220.
- (66)- البخاري: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الزمر، ج.6، ص.225.
- (67)- إسماعيل حقي البروسوي: روح البيان، ج.8، ص.134.

- (68)- المصدر نفسه، ج.8، ص.134.
- (69)- عبد الفتاح لاشين: البيان في ضوء أساليب القرآن، ط.2، دار المعارف، القاهرة، 1985م، ص.186.
- (70)- المرجع نفسه، ص.186.
- (71)- بكري شيخ أمين: التعبير الفني للقرآن الكريم، ص.202.
- (72)- إسماعيل حقي البروسوي: روح البيان، ج.8، ص.135.
- (73)- الشريف المرتضي: أمالي المرتضي، ت: أبو الفضل إبراهيم، ط.2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1387هـ-1967م، ج.1، ص.321.